

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - "اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والغفار والغنى"

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا هو الحديث الثالث في باب التقوى، وهو حديث ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والغفار والغنى))^(١).

علاقة هذا الحديث بباب التقوى علاقة ظاهرة، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يسأل ربه التقوى، ومثل هذا التركيب، والتعبير بالكون المثبت الماضي، وجاء بعده الفعل المضارع يدل على المداومة والتكرار، كما قال الله - عز وجل - عن إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ} [مريم: ٥٥]، فهذا الأسلوب يدل على أنه كان يكثر ويكرر من أمرهم بالصلاحة والزكاة، ولا يكتفي بمرة واحدة. وهذا كان يقول: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والغفار والغنى)) يدل على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يردد ذلك ويكرره ويكثر منه - عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أكمل الأمة تقوى الله - تبارك وتعالى -، وأعظمهم هداية، وهو أيضاً أكملهم عفافاً وغنى، وقد استوفى الكمال في هذه الأمور الأربع التي كان يسألها، ومع ذلك كان يسأل ربه كثيراً أن يحقق له مثل هذه الأمور، فهذا يدل على أن الإنسان من باب أولى، الواحد منا من جملة الناقصين المفرطين كثيراً، وبحاجة إلى مزيد من اللهج بهذا الدعاء، فإن من أسباب تحصيل التقوى التي نتحدث عنها في مثل هذه الأيام هو الدعاء؛ لأن العبد مهما كانت قدراته ومجاهداته وذكاؤه وفطنته وحرصه فإن الموفق من وفقه الله - عز وجل -، ولا يمكن للإنسان أن يحصل على معاني الكمالات إلا بأن يكون مستعيناً بالله - تبارك وتعالى - فهو الذي يهب الكمال، فيسأل ذلك من الله - تبارك وتعالى - فإنه لا يسير إلا ما يسره، ولا يحصل في هذا الكون قليل ولا كثير إلا مما قدره - سبحانه وتعالى -، فإذا أراد العبد مطلوباً من مطلوبات الدنيا والآخرة فما عليه إلا أن يتوجه إلى من بيده ذلك كله أن يزرقه الله ذلك.

والغنى المراد به: غنى النفس، وغنى القلب، بحيث لا يكون فيه فقر لغير الله - عز وجل -، فإذا استغنى القلب وصار مستغنياً عن المخلوقين لله - تبارك وتعالى - فإنه يكون قد حقق الغنى.

وهذه الأمور التي كان يكثر النبي - صلى الله عليه وسلم - الدعاء من أجل تحصيلها لم تكن من أمور الدنيا، بمعنى التكاثر الذي ذمه الله - عز وجل -، **{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}** [التكاثر: ١]، فكان - صلى الله عليه وسلم - يسأل ربه حقيقة الكمال، وهي هذه الأمور وغيرها مما كان يسأله - صلى الله عليه وسلم - كما جاء عنه في أدعيته المأثورة.

^١ - أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٤/٢٠٨٧)، رقم: (٢٧٢١).

كان يقول: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى)) الهدى جاءنا عن طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله قال: **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [الشورى: ٥٢].

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يسأل ربه الهدى، ويدخل في ذلك هداية الإرشاد بمعرفة معالم الطريق، فالله يوحى إليه، وينقله من هداية إلى هداية، فهذا هو الذي أثبته الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [الشورى: ٥٢].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قبل أن ينزل عليه الوحي لم يكن يعرف تفاصيل الأمور، وألوان الهدایات، فيبينها الله له، قال الله -عز وجل- فيه **{وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى}** [الضحى: ٧]، وقال: **{مَا كُنْتَ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا إِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَا نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءَ مِنْ عِبَادَنَا}** [الشورى: ٥٢].

فالإنسان يسأل ربه أن يرزقه الهدى، بمعنى المعرفة بالحق وبالباطل، وأن يعرف مراد الله -عز وجل-، والهدى الآخر وهو التوفيق إلى هذه الأمور التي بينها الشارع، كثير من الناس يعرف تفاصيل من هدایات الله -عز وجل-، أقل ذلك أن يعرف أن الصلاة واجبة، والصيام واجب، وأن الزنا حرام، والسرقة حرام، وما أشبه ذلك، وكثير من الناس يترك الصلاة ويفعل الفواحش، وهو يعرف حكمها، فدل ذلك على أنه قد عرف هداية الإرشاد، ولكنه لم يحصل هداية التوفيق من الله -تبارك وتعالى-، وهي التي نفاه الله عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- حينما كان يحاول مع أبي طالب عند موته، فلم يهتدِ ومات على الكفر، قال: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}** [القصص: ٥٦]، والمقصود بذلك هداية القلوب إلى ربها وباريها بالإيمان والتوبة، ولزوم الصراط المستقيم، قوله تعالى: **{فَوْلَأَ وَعَمَّا وَحَالَأَ}**، وهذه من حصلت له فلا شك أنه مهتدٌ، **{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي}** [الأعراف: ١٧٨]. من يوفق للحق فيكون ملازماً له ظاهراً وباطناً فهو المهتدٌ.

قوله: ((**أَسْأَلُكَ الْهَدَى وَالْتَّقَى**)), التقى: بمعنى أن يكون عند هذا الإنسان حال تقوم في قلبه يحصل بها امتناع الأمر واجتناب النهي، وذكرنا لكم من قبل أنها متفاوتة، من الناس من يرتقي فيكون ذلك حاملاً له على فعل التوافل، وترك المكرورات، ومن الناس من يصل إلى كمال أعظم من هذا، فيترك التوسيع في المباحثات حتى لا يشغله ذلك عن ربه، وعن المبادرة بالخيرات، فتتقله هذه الأمور من هذا العرض الزائل إذا استكثر منه، وأكثر من اللهو والماح، فيقعده ذلك بما هو بصدده، فالناس يتفاوتون في هذا غاية التفاوت، قوله: ((**الْعَفَافُ**)) يعني: الإنفاق عن كل ما لا يليق مما يخشى الحياة، أو يخشى العرض، أو يدنى الشرف، فيكون ذلك بالعرض للناس بالمسألة، وهذا مخالف للعفاف، **((وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يَعْفُهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يَغْنِهُ اللَّهُ))**.

تقول: فلان متغافٍ، بمعنى لا يذهب ماء وجهه، لا يريق ماء وجهه من أجل أن الناس يعطونه شيئاً مما في أيديهم، هذا من العفاف.

^٢- أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة (٥٣٤/٢)، رقم: (١٤٠٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التغافر والصبر (٧٢٩/٢)، رقم: (١٠٥٣).

والعفاف أيضاً بمعنى: الستر، والصيانتة، والخشمة، وعدم دخول مداخل الريب، إن كانت نساؤه محجبات لا يخرجن لريبة، لا يخلو بهن أجنبى، لا يفعلن ما لا يليق، وهو لا يدخل مداخل الريب، ولا يذهب مع أولاده يتسبّبون في دول وعواصم يكثر فيها الفجور والتبرج وقلة الحياء، ونزع جلباب المروءة برمته، فهذا أمر لا يكون لأهل العفاف.

وكذلك أيضاً لا يكون الإنسان عفيفاً إذ كان يتلخص على أعراض الناس، بكل طريقة، بطريقة إلكترونية، أو بغير ذلك مما يفعله بعض من نقص عفافه، كذلك الذي يتلخص على حاجياتهم وأموالهم، فيسرق ويأخذ ذلك بخلسة أو بسرعة مكشوفة واضحة، هذا خلاف العفاف، إلى غير ذلك من الأمور التي تخدش شرف الإنسان، وتقدح في عرضه ومروءته، فكل ذلك خلاف العفاف والغنى.

والغنى هو غنى النفس ومن رزق هذا فكأنما حيزت له الدنيا، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من أصبح منكم آمنا في سربه، معافي في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا))^(٣).

عند قوت يومه يعني ليس عنده شيء للغد، كأنما حيزت له الدنيا، فالإنسان ما يدرى هل يعيش إلى الغد أو لا، والله قد تكفل برزقه، فليس على الإنسان أن يشقي من أجل التفكير في زرق الغد، وإنما هو بصدق يومه هذا، والله هو الرزاق ذو القوة المتين.

فإذا وُجد الغنى في النفس فإن الإنسان يكون مستغنِياً بالله -عز وجل- عن الخلق، لا يذل نفسه، لا يهين نفسه، لا يهدى كرامته من أجل أن الناس يعطونه، أو يلتقطون إليه، ويعرفون حاله، وما أشبه ذلك.

وإذا عدم الإنسان غنى النفس لو أعطى الدنيا وما فيها سيقى قبَر القلب، ينتظر الزيادة، رأينا أناساً يملكون أموالاً طائلة، ويمتلكون مصانع، ويذهب إلى فلان وفلان، يقول: على ديون، أعطوني زكاة، ولربما يفتح بعض المصانع بالديون، ويقول: ما على إلا أن آتي لفلان وفلان فيعطيوني من الزكاة، ويأخذ منهم الزكاة، هذا غنيٌّ ويأخذ منهم الزكاة، فهذا غنيٌّ والعرض بيده كثير، ولكن قلبه فقير.

سألت مرة أحد طلبة العلم في الجمهوريات التي تسمى الجمهوريات الإسلامية عن حال الناس في بلده، فقال: "الخير كثير في أيديهم، ولكن الفقر كبير في قلوبهم"، وهذه عبارة مختصرة، لكنها معبرة، الفقر في قلوبهم، وإذا دخل الفقر في القلوب لا تسأل عن حال الإنسان، مهما أعطي يظل يلهث وراء الدنيا، يشعر أنه ناقص، أنه أقل من الآخرين، أن هناك أشياء فاتته، أنه خسر أشياء، أن عليه أن يحقق وينجز ويكسب ويربح، ويدخل في المساهمة الفلاحية، ويشتري كذا ويفعل، ويتضجر إذا قيل له: ما يجوز، أو هذا حرام، أو هذه فيها شبهة، أو نحو ذلك.

وهو يشعر دائماً أنه ناقص، أنه مغبون الحظ، وأنه ليس كالآخرين الذين حققوا نجاحات، وأنه فاته القطار، فعليه أن يكثر الجري، ويلهث وراء هذه الدنيا، لعله أن يحصل بعض ما فاته بكل طريق، ((ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس))^(٤).

^٣- أخرجه الترمذى، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٥٧٤/٤)، رقم: (٢٣٤٦).

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يربى أصحابه على هذا المعنى، فلما جاء مال من البحرين تعرض له الأنصار، فلما رأهم ابتسم -عليه الصلاة والسلام- وقال: **(ما الفقر أخى عليكم، ولكن أخى أن تبسط عليكم الدنيا فتนาفسوها كما تنافسواها، فتهلككم كما أهلكتهم)**^(٥).

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي العالم الكبير المعروف صاحب أضواء البيان كان يقول: جئت من البلاد، ومعي كنز لا يقدر بثمن، وهو القناعة، يقول: **الجوع يُطرد بكسرة من الخبز**، لكن أهم شيء أن لا يذهب ماء الوجه. يمكن للإنسان أن يتخذ "فريزر" ويملئه خبزاً يكفيه سنة يأكل منه، لكن ماء وجهه لا يذهب، هذا أهم شيء أن تبقى للإنسان كرامته، يأكل خبزاً، ولو خبزاً يابساً، لكن يبقى ماء وجهه.

فهذه المعاني تحتاج أن نربى عليها أنفسنا، ونحتاج أن نربى عليها أولادنا.

أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا وإياكم الهدى والغنى والعفاف، وأن يشفى مرضانا، ويرحم موتانا، ويعافي مبتلانا، وأن يجعل آخرتنا خيراً من دنيانا، وصلى الله على نبينا محمد، وآلله وصحبه.

^٤- أخرجه البخاري، كتاب الرفق، باب الغنى غنى النفس (٢٣٦٨/٥)، رقم: (٦٠٨١)، و مسلم، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (٧٢٦/٢)، رقم: (١٠٥١).

^٥- أخرجه البخاري، كتاب الرفق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٢٣٦١/٥)، رقم: (٦٠٦١)، و مسلم، كتاب الزهد والرفاق (٢٢٧٣/٤)، رقم: (٢٩٦١).